الفصل السابع

لقاء مع ذي الحجم الصغير

الحادي والثلاثون من كانون الثاني عام ١٩٩٧م

يتذكّر الدكتور دييغو شفارتزن تاريخ الموعد الأول بدقة؛ إنّه الحادي والثلاثون من كانون الثاني، اليوم الذي يصادف يوم ميلاده. قابلت في ذلك اليوم ليونيل أول مرّة. كان عمره تسع سنوات ونصف السنة، وقد أحضره أبواه إلى عيادة الغدد والباطنية، الموسومة بالرقم 1764، في شارع كوردوبا بوسط روزاريو؛ لاستشارة الطبيب المتخصّص بشأن عملية النمو المحدودة التي وسمت ثالث أبنائهما، وسبَّبت لهم شعورًا بالقلق.

يتذكّر الطبيب هذا الأمر جيدًا، وفي ذلك يقول: «كانت الاستشارة تتعلّق ببِنْيَته الصغيرة؛ وهو أمر أراه مرّات عدّة يوميًّا».

كان طول ليو يبلغ 1,27 متر، ولم يكن بعدُ قد أصبح نجمًا أو لاعبًا مشهورًا، حتى إنّه لم يبلغ مستوى الاحتراف؛ إذ كان يلعب وقتئذٍ ضمن فرق الفئات العمرية بنادي نيولز. «أنا من مشجعي المجذومين منذ الصغر (هناك ما يُثبِت هذا الأمر؛ صورة لابنه تحت زجاج المكتب، التُقِطت في مباراة أحرز فيها فريق الأحمر والأسود هدفًا في مرمى فريق بوكا جونيورز). وقد ساعدني

ذلـك على إنشاء علاقة طيبة بالمريض. كنّا نتحدث عن كرة القدم، التي كانت الموضوع الوحيد الذي كسر حاجز الخجل عند هذا الفتى».

مواعيـد عدة، تَقصٍّ دام أكثر من عام، فحوصـ معقّدة، تحاليل وعيادات بيـو كيميائيـة. «قمنا بذلك كلّـه؛ لأنّه كان السبيل الوحيـد لتحديد ما إذا كانت المشكلـة تتعلّق بالهرمونات، أم أنّها مجرّد حالة ممّـا نسمّيها «النمو المتأخر»؛ أيّ، طفل يتأخّر نموه مقارنة بأقرانه، لكنّه يواصل النمو في نهاية المطاف».

شـرح الطبيـب لنا هـذا الأمر عن طريـق الإشارة إلـى التواريـخ والمُدد الزمنيـة في سجلّ مريض مـا، مُبيِّنًا الوقت الذي يستغرقـه تشخيص مثل تلك الحـالات (نقص هرمون النمو). وفي ذلك يقـول: «لا تُنتِج الغدد هرمونَ النمو إطلاقًـا. يمكن تبسيط شرح هذه الحالة بتشبيهها بحالة مريض السكري الذي لا يُنتِـج بنكرياسـه الأنسولين أبدًا. وبالنسبة إلى حالة ليـو، فإنّه في حاجة إلى مـادة تساعده على النمـو. الفرق بين هاتين الحالتين هو أنّ سبعة في المئة من سـكان العالَـم يعانون مرضَ السكري، في حين تُعَدّ حالـة ميسي نادرة جدًّا؛ إذ تُظهِر الإحصائيات أنّها تصيب واحدًا من كلّ عشرين مليون شخص.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الحالة ليست وراثية. انظر إلى أخويه، أو حتى إلى أخته الصغرى ماري سول، التي تُعَدّ طويلة هي الأُخرى».

وفيمـا يخصّ كيفية تعامُل ليو مع ذلك الأمر، قال الطبيب: «أذكر أنّه كان يتعامـل مع حالته المرضيـة بصورة جيدة؛ إذ تقبّل أنـواع الفحوص جميعها – حتـى أشدّها وطـأة – والعلاج على نحوٍ حسن. وقد ساعدتـه عائلته كثيرًا على ذلك، فقد كانت عائلة من الطراز الرفيع.

وحيـن حُدِّد موضـع الخلل، بدأ اختصاصي الغـدد الصم برنامجًا للعلاج بهرمون النمو؛ حقنة تحت الجلد يوميًّا، مدّة تتراوح من ثلاث إلى ست سنوات؛ حتى يكمل المريض نموه بصورة كافية.

أمّا بالنسبة إلى تقييم مدى التطوّر في حالة المريض، وكيفية قياس النمو وتعـرُّف حدّه الأقصـى، فإنّ ذلك يكون بتصوير اليد بوساطـة الأشعة السينية. وقـد دأب الطبيب على عرض الصور أمامنا في مراحـل التطوّر المختلفة التي مرّ بها ليو: في سنّ التاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، وصولًا إلى سنّ الثامنة عشـرة. وقد لفـت انتباهنا المساحـة الفارغة بين العظمة والأُخـرى، التي قال عنهـا الطبيب: إنّهـا سوف تختفي حين تبلـغ عملية النمو حدّهـا الأقصى لدى المريض.

أضاف بعدها قائلًا: «ليس بمقدورنا التغلّب على علم الوراثة. ولكن، يمكننا تقديـم المساعدة في حال ظهرت بعضـ التعقيدات. أودّ التأكيد أنّ حالة نقص هرمـون النمو تُلازِم المريض طوال حياته. لـذا، يتعيّن علينا التدخُّل للتخفيف من وطأة هذا الأمر».

لم تكن حالة ميسي تتطلّب عمل اختبارات وفحوص. فهو لم يكن فأر تجارب كما كتب أحدهم ذات مرّة. بدأ صبر الطبيب ينفد، وهو يقول بصوت جهير: «لم يكن الأمر تجربة قطّ. لطالما استُخدِم هرمون النمو في حالات مشابهة سنوات طويلـة؛ نحو ثلاثيـن عامًا على وجه التحديد. وقد كان يُستخرَج – فيما مضي- مـن جثث الموتى، إلّا أنّ ذلك كان يزيد من احتمال الإصابة بجنون البقر. لذا، فقـد عُدِل عن ذلـك، وأصبح يُنتَج عن طريق الهندسـة الجينية منذ ثمانينيات القـرن العشرين. ولم يثبت - حتى هذه اللحظة- وجود أيّ أعراض جانبية على المدى البعيد. وإن لم نواجه أيّ مشكلة في أثناء معالجة الحالات الشبيهة بحالة ميسي، حيث كان لِزامًا منحه ما ينقصه».

وفـي معرِض ردّه علـى سؤال عـن سبب تحريـم هرمونات النمـو، وعدم انتشارهـا في أوسـاط الرياضيين عند الحديث عـن المنشطات؛ قال الطبيب:

«تُسهِم الهرمونات في حال أُعطِيت لشخص بالغ لا يعاني أيّ نقص أو خلل ما (أيّ شخص لديه معدلات إفراز طبيعية، وستيرويدات ابتنائية)، في زيادة الكتلة العضلية، والتقليل من الألياف الدهنية؛ ما يزيد من إنتاج الطاقة الحركية، وسرعة الأداء».

لكنّ الأخطار التي تُهدِّد سلامة المرء عند تعاطيها كبيرة؛ إذ يمكنها التسبُّب في كثير من الأعراض، مثل: احتباس السوائل، وفرط نشاط الغدة الدرقية، وارتفاع معدل السكر في الدم، وارتفاع الضغط داخل الجمجمة، فضلًا عن احتمال ظهور الأورام.

وعلى الرغم من ظهور كثير من التكهنات والمخاوف ذات الصلة بهذا الموضوع؛ سواء في الأرجنتين أو في إسبانيا، لكن هناك أمرًا كُتِب عنه الكثير – من دون تحقُّق، أو داعٍ غالبًا –؛ هو تكلفة العلاج التي قد تصل إلى نحو 600,000 بيزو أرجنتيني (100,000 دولار أمريكي تقريبًا) سنويًّا.

يُعَدّ هذا المبلغ كبيرًا، وقد يكون هو السبب وراء مغادرة عائلة ميسي إلى إسبانيا، من باب أنّ نادي برشلونة كان هو الوحيد الذي أظهر استعدادًا للتكفّل بنفقات العلاج.

«لطالما لفتت قصته انتباهي، حينما كانت وسائل الإعلام تُصرِّح بأنّ والده سافر به؛ لأنّ أحدًا لم يتكفّل بعلاجه هنا. مع أنّه من غير المؤكَّد أنّ الجميع رفض ذلك فعلًا؛ إذ تكفّل الضمان الاجتماعي ومؤسسة أسيندار بعلاج الفتى. ولم يتضح – حتى هذه اللحظة – ما إذا كان ذلك هو سبب مغادرتهم البلاد حقًّا. فإذا كان الوالدان مشمولَيْن بالضمان الاجتماعي، أو لديهما تأمين صحي، فإنّ البرنامج الصحي الإجباري سيتكفّل بالعلاج. وفي حال لم يكونا مشمولَيْن

obeikandl.com

بأحدهمـا، فيستعان باللجنـة الاستشاريـة الوطنية التي تُعنـى بالأطفال الذين يعانون نقصَ هرمون النمو، وهي جهة تُقدِّم العلاج مجّانًا منذ عام 1991م».

هـذه رواية تختلف عـن تلك التي ترويهـا عائلة ميسي؛ إذ قـال خورخي (والد ليـو): إنّ الضمان الاجتماعي ومؤسسة أسيندار توقفتـا عن دفع كامل التكاليف بعد سنتيـن من بدء العلاج. ثـمّ وافقت إدارة نادي نيولز علـى تغطية جزء من التكاليف (واحـدة من حقنتين)؛ لعلمهـا بالمستقبل الواعد الذي ينتظـر ليو. ولكن، وبصورة تدريجيـة، بدأت الدفعات تصل متأخرة. وفي ذلك يقول خورخي، الذي لم يألُ جهدًا في إيجاد حلّ للمشكلة: «لقد راجعناهم مرارًا للحصول على المال، لدرجة أنّ زوجتي ضاقت ذرعًا بذلك، وقالت: إنّها لن تُطالِب بأيّ مال بعد الآن، وهذا ما كان فعلًا».

يتذكّـر خورخـي الأمر قائلًا: «كان نـادي ريفر بلايت قـد افتتح مكتبًا في روزاريو. وكانت تلك فرصة للفتى، ووسيلة للضغط على نادي نيولز. فذهبنا إلى بوينوس آيرس حيث استعدّ ليو لعرض مهاراته وقدراته.

تـدرَّب ليو فـي موقع النـادي بحـيّ بلغرانو، وحيـن أنزلوه إلـى الملعب في مباراتـه الأولـى، أدركوا مدى مهارتـه وتميُّزه فـي الحال، وأنّه لـم يكن مجرّد فتـى هزيل. ثمّ قالـوا لي: نريده. ولكـن، يتعيّن عليك البدء بإجـراءات انتقاله إلـى النـادي بصورة رسمية، بعد موافقة نادي نيولز على التخلّي عنه. لم يرغب القائمـون على النـادي الخوضَ في مشكلات مع نادي نيولز. لذا، لم نَمضِ قُدُمًا فـي الموضـوع. وحين علم إداريو نادي نيولز بالأمر طلبـوا إليَّ الإبقاء على ليو، وقدَّموا المزيد من الوعود. بعدها ظهر نادي برشلونة في دائرة الأحداث...».

وبعـد توضيـح الأمـر بصـورة أو أُخـرى، تَبيَّـن أنّ عائلة ميسـي تتفق مع شفارتـزن في «أنّ مسألـة نقص هرمون النمو وعلاجها لا تتعـدّى كونها مجرّد حكاية، وأنّ المهم حقًّا هو مهارات الفتى في كرة القدم».

في هذه اللحظة، ينهض الطبيب عن مقعده، ويخرج من وراء مكتبه، ويُطلِق العِنان لمجموعة من التصوّرات التي تجول في مخيّلته بشأن رجل شغوف بكرة القدم، فيتحدّث عن مدى إعجابه بالركض السريع، والتحكّم في الكرة، وعن «قدرات ليو التي لا يستطيع أحد تحديدها وتعرُّف كُنهها، وعن غيرة سكان بوينوس آيرس (البورتينيوس) وغيظهم من أنّ لاعبًا عظيمًا مثله لم يخرج من رحم مدينتهم؛ فهنا يتعيّن عليك اللعب لأحد قطبي العاصمة إذا رغبْتَ في إحراز النجاح. فباتيستوتا على سبيل المثال، كان لاعبًا لنيولز، لكنّ شهرته لم تبلغ الآفاق في الأرجنتين إلّا عندما لعب لبوكا جونيورز».

لندع عنّا كرة القدم، ولنعد قليلًا إلى الوراء. فقد يكون موضوع العلاج بهرمون النمو مجرّد حكاية تُحكى. ولكن، انظر إلى مقال نُشِر أخيرًا في صحيفة لا كابيتال يحمل عنوان «يريدون تجربة دواء ميسي على أطفالهم». ورد في هذا المقال ما نصّه: «منذ أصبح العلاج الذي تناوله ميسي معروفًا للملأ، تحوَّل هرمون النمو ليصبح دواء سحريًّا، يمكنه مساعدة الأطفال الصغار على النمو.

يُعَدّ موضوع أجسام الأطفال الهزيلة هاجسًا يُؤرِّق الأهل، خاصة عندما يذهب هؤلاء الأطفال إلى الروضة، وتبدأ مقارنتهم بأقرانهم. إنّ تلك المقارنة تُعَدّ مغالطة ومجافاة للحقيقة؛ لأنّ معدل النمو غير ثابت.

وفي واقع الأمر، يُعزى سبب هذا الهزال إلى عوامل وراثية، وإلى سوء التغذية خلال أول سنتين من عمر الطفل، أو إلى تأخّر في عملية التطوّر والنمو، وهو أمر لا يمكن علاجه، لكنّ كثيرًا من الآباء والأمهات يطلبون إلى الأطباء المتخصّصين الذين يُشرفون على حالة أبنائهم، العلاج نفسه الذي أُعطي لليو ميسي».

يحتج الطبيب على هذه المسألة قائلًا: «تلك هي الآثار السلبية للطريقة التي تتناول بها وسائل الإعلام علاجًا أُعطي للاعب كرة قدم مشهور، فضلًا

obeikandl.com

عـن طريقة الفهم المغلوطة التـي يتّبعها الأهل والناس بصـورة عامة. لم يكن ذلك ليحدث لو بقي الأمر محصورًا في علاقة الطبيب بالأهل والمريض.

يحتـم عليَّ واجبي أن أُنافِح عن الحقيقة الطبية التي تؤكِّد أنّ ذلك العلاج لا يفيـد الأطفال الذين لا يعانون نقصًا فـي الهرمونات، خاصة عند أخذ تكلفة العلاج المرتفعة (مقارنة بنتائجه غير المجدية) في الحسبان. لذا، يتعيّن على مَـنْ يعانـون نقصَ الهرمون الـذي كان يعانيه ليو، تناول هـذا العلاج. وما زلْتُ أذكر أنّ ليو بدأ بتناول العلاج عام 1998م، حين كان طوله 1,27 متر، ثمّ أصبح طولـه 1,69، الآن، بعـد أن أكمل علاجه فـي برشلونة. وكلّي يقيـن أنّه لم يكن لينمو بهذا الشكل لولا العلاج الذي تناوله».

obeikandl.com